(التّعليق) و(توخّي معاني النّحو) في كتاب دلائل الإعجاز
قراءةٌ تناصيّةٌ

د. ناصيف ناصيف*

د. سهام صقر**

علا يوسف***

(تاريخ الإيداع 15 / 2 / 2021. قبل للنشر في 16 / 8 / 2021)

□ ملخّص □

يكتنه هذا البحث مفهومي (التّعليق) و(توخّي معاني النّحو) في كتاب دلائل الإعجاز بوصفهما تعريفين حدّ بهما عبد القاهر النّظم ؛ ليقرأهما في ضوء نظريّة التّناصّ ، بعيداً عن التّصورات القبْليّة ، والأحكام الجاهزة. والحقُّ أنّ حضور مقولة النّظم في تراثنا النّقديّ جليٌّ بارزٌ ، قدحه البحث في الإعجاز القرآني. بيدَ أنّ المقولة تجلّت بمفهوماتٍ متعدّدةٍ شفّت عن المنطلقات الفكرية لأصحابها ، وأظهرت فاعليّة أدواتهم المعرفيّة قبل أن تصل إلى ذروتها ونضجها في نصّ عبد القاهر الجرجانيّ الذي تمكّن – بموسوعيّته– من امتلاك نصوص سابقيه ومعاصريه امتلاكاً نوعيّاً ؛ فامتصّها ، وحوّلها ؛ حتّى استوت على الصّورة التي وصلت إلينا. ولمقولة النّظم في كتاب دلائل الإعجاز مستوياتٌ متعدّدةٌ ، تخيّرنا منها – في هذا البحث– المستوى التّأسيسيّ النّحويّ ، متمثّلاً بالتّعليق ، وتوخّي معاني النحو. أمّا دراسة التّناص النّقديّ في النّظم مع معاصري عبد القاهر وسابقيه ، فله مقامٌ آخرُ ، ودراسةٌ أخرى جارٍ العمل عليها. وهكذا سيعمل البحث على تقرّي نصّ دلائل الإعجاز في التّعليق وتوخّي معاني النّحو ؛ للكشف عن أهمّ النصوص النّحويّة الغائبة التي تحيلنا عليها القراءة ، ثمّ تحديد موقعها في النّصّ الجديد ، وإظهار آليّات تحويلها ، وتوظيفها ، محاولاً تقديم إجابةٍ عن السّؤال الآتي: ما مدى فاعليّة التّناصّ بوصفه آليّة قراءةٍ في تأويل نصٍّ نقديّ؟

الكلمات المفتاحيّة: التّناص ، النّحو ، دلائل الإعجاز ، التّعليق ، معاني النّحو.

* أستاذ– قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

** مدرّسة – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

*** طالبة دراسات عليا (دكتوراه) – قسم اللّغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللّاذقية – سوريّة.

The Annotation and the Syntactic check in "Dala'el Al-Ejaz".(An inter-textual Reading).

Dr. Nassif Nassif[*]
Dr. Siham Sakr[**]
Aula Yousef[***]

(Received 15 / 2 / 2021. Accepted 16 / 8 / 2021)

□ ABSTRACT □

The research includes the annotation and the syntactic check in *"Dala'el Al-Ejaz"*,which are the definitions identifying the composing to read the inter-textuality theory far away from the pre-planned concepts.Indeed,the concept of composing is significantly at our cultural-heritage the research is tackling at the Qura'anic miracle.While,the category has been manifested in different concepts ,revealing the intellectual perspectives and also the efficiency of the cognitive tools before the maturing phase at *Al-Jurjani* text which possessing the recent and the contemporary texts ,absorbing and transforming them to be settled.

The composing category *at "Dala'el Al-Ejaz"* has several levels we choose to go deeply in the structural –syntactical level represented in Annotation and syntactic check .While, the critical inter-textuality at composing in relation to the recent and contemporary is completely another context I currently work.Therefore,the research will try to interpret at *"Dala'el Al-Ejaz*" Annotation and syntactic check to show the essential-implied text gradually the reading rendering and then pointing their positions at the new-text showing the transformed –strategies and how to function trying to reply the question :"how efficiency the inter-textuality as critical interpretation reading strategy?

Key Words: intertextuality, Syntax , Dala'el Al-Ejaz, Annotation, syntactic check.

[*]**Professor at Arabic language and Literature Department –Tishreen University –Lattakia-Syria.**
[**]**Doctor - Arabic Department-Faculty of Arts and Humanities-Tishreen University-Lattakia-Syria.**
***P.HD student Arabic Department-Faculty of Arts and Humanities-Tishreen University-Lattakia-Syria.**

مقدّمة

بعد انتشار نظريّة التناصّ (intertextuality) في ستينيّات القرن الماضي ، وكَثرة تطبيقاتها في النّصوص الفنّية، كان التّساؤل حول إمكانيّة الحديث عن تناصّ نقديّ ؛ خاصّةً أنّ الإنتاجيّة النّقديّة قائمةٌ على الحوار ؛ فالنّقد حوارٌ يقيمه النصّ مع النّصوص الإبداعيّة من جهةٍ ، والنّصوص النّقديّة من جهةٍ أخرى. فقد شاعت النظريّة بعد ظهور مصطلح التّناصّ في كتابات جوليا كريستيفا التي يعود لها الفضل في وضع المصطلح وضبطه ، وتوجيه الاهتمام إلى النّصّ بوصفه إنتاجيّة ، وتداخلاً نصيّاً ، وترحالاً للنّصوص[1]. ثمّ ظهرت بواكيرُ الدّراسات التي تكلّمت صراحةً على التّناص النّقدي بعد ذلك بعقدٍ من الزّمن تقريباً في كتابات ليلى بيرون موزاي التي تساءلت عن مشروعيّة التّناصّ النّقديّ، وبحثت في الفروق بين الحواريّة النقديّة ونظيرتها الأدبيّة[2] ، وكتابات تودوروف الذي بلور رؤيةً مؤسّسةً على آراء باختين باسم (النّقد الحواريّ)[3] ؛ إذ رأى الإنتاجيّة النّقديّة مماثلةً لنظيرتها الأدبيّة ؛ فكلتاهما قائمةٌ على الحوار ؛ فالنّقد كما قال : « لقاء صوتين ، صوت الكاتب وصوت النّاقد ، وليس لأيّ منهما امتيازٌ على الآخر»[4]. ومع أنّ الكلام على التّناص النّقدي كان مبكّراً نسبيّاً ، فإنّه ما زال غائباً عن الدّراسات العربيّة التي اكتفت بتطبيق التّناص على النّصوص الإبداعيّة. ومن هذه النّقطة تأتي أهميّة هذا البحث ؛ أي من جِدّته ، وتنقيبه في أرضٍ بكرٍ ، لم تقربها أقلام الدّارسين، ولم تلتفت إليها جهودهم. وقد تخيّر البحثُ لهذه الغاية نصّاً مهمّاً في تراثنا النّقديّ متناً يشتغل عليه ؛ هو نصّ دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيّ (ت471هـ) ، وانتقى مفهومي التّعليق ، وتوخّي معاني النحو أنموذجين يناقدهما ؛ لبحث تناصّ نصّ عبد القاهر مع أهمّ النّصوص
الغائبة في هذين المفهومين ، والكشف عن آليات توظيف هذه النّصوص في نصّه ، وطرق تحويلها.

طرائق البحث وموادّه

يتّخذ هذا البحثُ من نصّ دلائل الإعجاز متناً له ؛ فينطلق من النّص نفسه ، متقرّياً أهمّ النّصوص التي يحيل عليها ؛ لكشف طرق التّحويل التي تحكم علاقة اللّاحق بالسّابق ، مستعيناً بمجمل نتاج عبد القاهر النّحويّ والبلاغيّ. وعليه ، فإنّ مادّة البحث الأساسيّة هي: نصّ عبد القاهر – كتاب دلائل الإعجاز خاصّةً– والنّصوص التي ثاقفها وناصّها، سواء أكانت سابقةً أم معاصرةً . وموادّ البحث – وفق هذه الرّؤية– مفتوحةٌ على حقول معرفيّة شتّى ، بيدَ أنّ تخيّر مفهومي (التّعليق ، وتوخّي معاني النّحو) أنموذجين للدّراسة يحيلنا على حقلين معرفيين أساسيين ؛ هما: النّحو، والبلاغة.

---

[1] ينظر: كريسطيفا ، جوليا. *علم النّص* ، ترجمة: فريد الزّاهي ، ومراجعة: عبد الجليل ناظم ، ط2 ، دار توبقال للنشّر ، الدّار البيضاء ، المغرب ، 1997م ، 21.

[2] ينظر: موزاي ، ليلى بيرون. *التّناص النّقديّ* ، ترجمة: سعيد بن الهاني ، نوافذ ، العدد 34 ، السعودية ، 2005م ، 55–84. وقد نُشر المقال أوّل مرّة في العدد(27) من مجلّة الشّعريّة في فرنسا ، عام 1976م. وقد كتب عبد القادر بقشي بحثاً درس فيه مقال ليلى بيرون موزاي بعنوان (*التّناص النّقدي*) أيضاً ؛ ينظر: علامات ، المجلّد 15 ، العدد 58 ، 2005م ، 202–212.

[3] ينظر: تودوروف ، تزفيتان . *نقد النّقد (رواية تعلّم)* ، ترجمة: د. سامي سويدان ، ومراجعة: د. ليليان سويدان ، ط2 ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامة – وزارة الثّقافة والإعلام ، العراق ، بغداد ، 1986م ، 87–88 ، 143–153.

[4] *نفسه* ، 147.

بناءً على ما سبق ، فإنّ البحث ينتحي سمتاً وصفيّاً تحليلياً ، يقارب به نصّ دلائل الإعجاز في المفهومين المشار إليهما، عبر الكشف عن أهمّ النّصوص التي يحيل عليها النّص ، ثمَّ إمعان النّظر في النّصين (الحاضر والغائب)، والموازنة بينهما ؛ لإظهار الفروق ، والوظائف الجديدة المنوطة بالنصّ الغائب في النّص الجديد ، ثمَّ الانتهاء إلى بيان كيفيّة قراءة نصّ عبد القاهر النّصَّ الغائبَ ، وآلية تحويله ، والارتقاء به.

المناقشة:

لم نقصد بالنّظم – ممثَّلاً بالتّعليق وتوخّي معاني النّحو– النّظريّة البلاغيّة الكبرى التي قدّمها عبد القاهر بصورةٍ ما زالت تُثير الإعجاب ، وتؤكّد ريادة فكر مبدعها. وإنّما أردنا ما يكون به الكلام كلاماً ؛ أي المفهوم النّحويّ للتّأليف تبعاً لقواعد علم النّحو وضوابطه. وفي هذا التّأطير لموضوع الدّراسة رغبةٌ في توخّي الدّقة ، وحرصٌ على اكتناه مقولات النّص؛ خاصّة أنّنا نعالج نصّاً غنيّاً لا تستنفده القراءات المتعدّدة.

ونحن ، هنا ، لا نقسر النّص ؛ فنفصل البلاغيّ عن النّحويّ ، بل نؤكّد تساوقهما في نصّ عبد القاهر الذي ربط الكلام على مفهوم النّظم نحويّاً بالكلام على الوجوه والفروق التي رأى في تخيّرها ومناسبتها المقاصدَ ميداناً للتفاضل. بيدَ أنّنا ننطلق من رؤية النّص نفسه الذي تنبّه على تفاوت مستويات النّظم ، وماز بعضها من بعضٍ ؛ فرأى النَّظم متنوّعاً متفاوتاً ، يفضل بعضهُ بعضاً ، انتهاءً إلى النّظم المعجز الذي تكثر فيه المزيّة ، وتنقطع عنده الأطماع. وقد أبانَ عن هذه الرّؤية في نصّ مهمّ جاء فيه: « ولم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى " الفصاحة" و" البلاغة" ، و" البيان" و " البراعة" ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرّمز والإيماء ، والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتّنبيه على مكان الخَبيء ليُطلب ، وموضع الدَّفين ليُبحث عنه فيُخرجَ، وكما يُفتح لكَ الطّريق إلى المطلوب لتسلكه ، وتُوضع لك القاعدةُ لتبنيَ عليها. ووجدتُ المُعوَّلَ على أنَّ ههنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغةً وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأنّ سبيلَ هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقةٌ فيها ، وأنّه كما يفضُل هناكَ النّظمُ النّظمَ ، والتّأليفُ التّأليفَ ، والنّسجُ النّسجَ ، والصّياغةُ الصّياغةَ ، ثمَّ يَعظُم الفضلُ ، وتكثُر المزيّة ، حتى يفوق الشيء نظيرَه والمجانسَ له درجاتٍ كثيرةً ، وحتى تتفاوت القيمُ التّفاوت الشّديد ، كذلك يفضلُ بعض الكلام بعضاً ، ويتقدَّم منه الشّيءُ الشّيءَ ، ثمَّ يزدادُ فضله ذلك ويترقّى منزلةً فوق منزلةٍ ، ويعلو مَرْقباً بعد مَرقَبٍ ، ويُستأنفُ له غاية بعد غايةٍ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع، وتحسر الظّنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في العجز»[5].

يؤكد هذا النصّ أنّ الحكم بالبلاغة حكمٌ جماليّ ، سرُّه التّركيبيّ هو النّظم ؛ وبذلك يحيل على موضع المزيّة بدقّةٍ، عاقداً أوثق الصّلات بين النّحو والبلاغة ، مشيراً إلى كَثرة طبقات الكلام التي تبدأ بدرجة صفرٍ تمثّل مستوى الصّحة اللّغويّة ، وتنتهي بالنّظم القرآنيّ المعجز. وما نحن بصدده في هذا البحث هو المستوى التّأسيسيّ للنّظم الذي عبّر عنه نصّ عبد القاهر في غير موضعٍ بالتّعليق ، وتوخّي معاني النّحو فيما بين الكلم ؛ لذا سيهتمّ البحث بالمستوى المُشار إليه ، ويكتفي بالإشارات البلاغيّة التي تستحضرها القراءة ، ويحيل عليها السّياق.

التّعليق:

جاء في مدخل دلائل الإعجاز: « معلومٌ أن ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعضٍ ، وجعل بعضها بسببٍ من بعضٍ. والكلم ثلاثٌ: اسمٌ ، وفعلٌ ، وحرفٌ. وللتّعليق فيما بينها طرقٌ معلومةٌ ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسامٍ : تعلّق اسمٍ

[5] **الجرجانيّ ، عبد القاهر . *كتاب دلائل الإعجاز* ، تحقيق: محمود محمّد شاكر ، ط3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1992م ، 34–35.**

باسمٍ، وتعلّق اسمٍ بفعلٍ ، وتعلّق حرفٍ بهما»[6]. ثمّ تكلّم النص على أضرب التّعلّق في كلّ قسمٍ ، وانتهى إلى القول:« ومختصر كلّ الأمر أنّه لا يكون كلامٌ من جزءٍ واحدٍ ، وأنّه لا بدّ من مسندٍ ومسندٍ إليه»[7].

يكشف الكلام السابق عن الهوية النّحوية لمفهوم التّعليق ؛ إذ يصرّح بمرجعيّته القائمة على فكرة الإسناد في نصوص النّحاة . ولعلّ أهمّ هذه النّصوص نصّ سيبويه(ت 180هـ) في باب المسند والمسند إليه ؛ قال: « وهما ما لا يَغنى واحدٌ منهما عن الآخر ، ولا يجدُ المتكلّم منه بُدّاً. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيّ عليه. وهو قولك عبدُ الله أخوك : وهذا أخوك. ومثل ذلك : يذهب عبد الله ، فلا بُدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأوّل بدٌّ من الآخر في الابتداء»[8].

ولا بُدَّ من الإشارة إلى أنّنا نريد بحث التّفاعل النّصي في قضية التّعليق في نصّ دلائل الإعجاز كاملاً ؛ إلا أنّ البحث لا يسمح بذكر النّص كلّه ؛ لذا اعتمدنا اقتطاع جزء محدّد منه يخدم الغرض ، ويقدّم الصّورة العامّة للقضيّة ، ثمّ دراسة تفاعله مع نصّ سيبويه ممثّلاً بجزء منه أيضاً، مع الاستعانة بمواضع أخر من النّصين العامّين تكمل جوانب القضيّة ، وتساعد على إقامة دراسة تناصيّة أوفى .

يعلن نصّ عبد القاهر – بوضوح – انتماءه إلى نصّ سيبويه ، وينتج نفسه من خلاله؛ فيمتصّه ويجري عليه تحويلاً طفيفاً. ومع القول – ابتداءً– إنّ نصّ سيبويه يشكّل نواة نصّ عبد القاهر ، فإنّ البحث سيقوم بفحصٍ أدقَّ للنّصين – عبر الموازنة ، والبحث عن آليات التّفاعل– خاصّة أنّ عبد القاهر عوّل على الإسناد ، واختصر به الكلام على التّعليق، إلا أنه اختار مصطلح التّعليق حدّاً للنّظم ، وذلك يومئ إلى فروق بينهما ، ويبيّن عدم مساواة الإسناد التّعليقَ مفهوميّاً. وتكشف قراءة النّصين عن الأمور الآتية:

– يشترك مصطلحا الإسناد والتّعليق في دلالة الضّمّ والتّركيب بين شيئين ؛ ليتكاملا ؛ إذ يبدو تلازمهما أمراً حتميّاً في نصّي سيبويه وعبد القاهر. تنضوي تحت ذلك الدّلالتان: اللّغوية والاصطلاحيّة ؛ فالإسناد لغويّاً يدلّ على« انضمام الشّيء إلى الشّيء»[9] . وعَلِقَ الشّيءَ: لَزِمه[10] . وهو ما أكّده نصّ عبد القاهر النّحوي ؛ إذ بيّن أنّ : «حقيقة الإسناد إضافة الشّيء إلى الشّيء ، وإمالته إليه ، وجعله متّصلاً وملامساً»[11]. واللّافت – هنا– أن نصّ المقتصد يذكر الضمّ والتّعليق بوصفهما مترادفين في سياق بيان دلالة الإسناد على الإضافة [12]. والإسناد في الاصطلاح « ضمّ إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التّامة : أي على وجه يحسن السّكوت عليه »[13]. أما العلاقة فهي « رابطةٌ .. ربط معنى بمعنى آخر ، وبالكسر ربط جسم بجسم آخر.. فهي بالفتح تستعمل في المعاني ، وبالكسر في الأمور

---

[6] ***نفسه*** **، 4.**

[7] **نفسه ،7.**

[8] **سيبويه . *الكتاب* ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون ، ط3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988م ، 1/ 23.**

[9] **ابن فارس ، أحمد. معجم *مقاييس اللّغة* ، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون ، ط1، دار الفكر ،1979م ، 105/3 (سند).**

[10] **ينظر: ابن منظور. *لسان العرب* ، تحقيق: عبد اللّه الكبير ، ومحمّد حسب اللّه ، وهاشم محمّد الشّاذلي ، دار المعارف ، (د.ت)،3071/4 (علق).**

[11] **الجرجاني ، عبد القاهر. *كتاب المقتصد في شرح الإيضاح* ، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ، الجمهورية العراقية ، 1982م ، 77/1.**

[12] **قال في تعليق على بيت لامرئ القيس قال فيه أضفنا بدلاً من أسندنا :« فوضع أضفنا موضع أسندنا لاتفاقهما في المعنى . وإذا كان كذلك جاز أن تقول في لِيَضربْ زيدٌ أنّ الفعل مسندٌ إلى زيدٍ ، لأنك قد أضفته إليه وعلقته به» ؛ نفسه ، 77/1.**

[13] **الجرجاني ، الشّريف. معجم *التّعريفات* ، تحقيق ودراسة: محمّد صدّيق المنشاوي ، ط1 ، دار الفضيلة ، القاهرة ، 2004م ، 22.**

المحسوسة...والعلاقة بالفتح في اصطلاح المنطقيّين شيء بسببه يستصحب شيء شيئاً ، استصحبه دعاه إلى الصّحبة ...فالمعنى أنّ العلاقة شيء بسببه يطلب الشّيء الأول أن يكون الشّيء الثّاني مصاحباً له»[14] .

– ترتبط ولادة المصطلحين (الإسناد في نصّ سيبويه ، والتّعليق في نص عبد القاهر[15]) بمصطلح البناء ؛ إذ تحدّث نصّ سيبويه عن المبتدأ والمبنيّ عليه ، وذكر البناء والإسناد بوصفهما مترادفين[16] . كما تتجلّى في نصّ عبد القاهر المساواة التّامة بين التّعليق ، والبناء ، والرّصف بوصفها دوالّ للنّظم[17]. والبناء – كما يكشف النّصان– ضمّ منظّم قائم على أسسٍ معلومةٍ ، وقواعدَ تحفظ لكلّ ركنٍ موقعاً يستلزم وظيفةً محددة [18] .

– أهميّة كلٍّ من الإسناد والتّعليق في نصّي : (الكتاب) ، و(دلائل الإعجاز)؛ ذلك أنهما تصدّرا النّصين.

– يقتصر الإسناد في اصطلاح سيبويه على إسناد الخبر إلى المبتدأ ، وإسناد الفعل إلى الفاعل ، أمّا التّعليق فهو إسناد أيّ كلمة لها دلالة إلى أخرى وفق أحكام النّحو ومعانيه. أي إنّ التّعليق يضمّ الإسناد، ولا يتوقّف عنده . وعليه ، يمكننا القول إنّ التّحويل الذي أقامه نصّ عبد القاهر قام – مبدئيّاً– على الاتّساع في نصّ سيبويه.

– إنّ إنتاج المعنى ، وتحقّق الفائدة مرهونان بالتّعليق والتّأليف بين ركني الإسناد كما بيّن نصّ سيبويه في غير موضع؛ كقوله: « ألا ترى أنّ الفعل لا بدّ له من الاسم وإلا لم يكن كلاماً» [19]. وهو عينه الذي ذكره نصّ عبد القاهر ؛ إذ إنّ «معاني الكلام كلّها معانٍ لا تتصوّر إلا فيما بين شيئين....ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد إلى فعلٍ من غير أن تريد إسناده إلى شيءٍ مظهر أو مقدّر ، وكان لفظك به ، إذا لم ترد ذلك ، وصوتاً تُصوّته سواءً»[20]. وهذا متّصل بالائتلاف والإفادة ؛ فالكلام غير المؤتلف هو غير المفيد مما لا يمكن تعليق كلماته بعضها ببعض ؛ كحال الفعل مع الفعل[21].

– يوضّح نصّ عبد القاهر في كلامه على الائتلاف والفائدة طبيعة العلاقات القائمة بين الألفاظ ؛ ذلك أنّه « ليس من عاقلٍ يفتح عين قلبه ، إلا وهو يعلم ضرورةً أنّ المعنى في "ضمّ بعضها إلى بعضٍ" ، تعليقُ بعضها ببعض ، وجعلُ بعضها بسببٍ من بعضٍ ، لا أن يُنطق بعضها في أثر بعض ، من غير أن يكون فيما بينها تعلُّقٌ . ويعلمُ كذلك ضرورةً إذا فكّرَ، أنّ التعلّق يكون فيما بين معانيها ، لا فيما بينها أنفسها. ألا ترى أنّا لو جَهدنا كُلّ الجَهْدِ أن نتصوّر تعلّقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتهما ، لم نتصور؟ ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: "مؤتلف" ...و"غير

---

[14] التّهانوي ، محمد علي. *موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم* ، تحقيق: د. علي دحروج ، تقديم ومراجعة: د. رفيق العجم ، نقل النص الفارسي إلى العربية: د.عبد الله الخالدي ، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي ، ط1، مكتبة لبنان ناشرون ، 1996م ، 1205/2 . وهو يذكر في غير موضع الارتباط بدلاً من التّعليق : ينظر مثلاً: *كتاب دلائل الإعجاز* ، 45 ، 525.

[15] لمصطلح التعليق جذور نحوية دَالة على الارتباط ؛ فقد تحدّث النّحاة عن تعليق شبه الجملة بالفعل أو شبهه ، بيدَ أنّ نصّ عبد القاهر وسّع دلالته ، وأكسبه بعداً جديداً.

[16] ينظر: *الكتاب* ، 23/1 ، 91 ، و126/2–127.

[17] ينظر مثلاً : الجرجانيّ ، عبد القاهر. *كتاب أسرار البلاغة* ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، ط1 ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، 1991م ، 4–5 ، *وكتاب دلائل الإعجاز* ، 9 ، 35 ، 44، 55 ، 135 ،544.

[18] لا نقصد هنا موضوع الرّتبة لدى النّحاة ، بل موضع كلّ منهما بالنّسبة إلى الآخر ؛ إذ لا يمكن التّبديل بين المسند والمسند إليه. وكما هو معلوم فإن الرّتبة النّحوية محفوظة في التّركيب الفعليّ (الفعل والفاعل) ، وغير محفوظة في التّركيب الاسمي(المبتدأ والخبر).

[19] *الكتاب* ، 21/1.

[20] *كتاب دلائل الإعجاز* ، 526–527.

[21] ينظر: نفسه ، 466.

مؤتلف"...ولو كان التعلّق يكون بين الألفاظ ، لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف ، وأن لا يكون في الدّنيا كلمتان إلا ويَصِحُّ أن يأتلفا ، لأنه لا تنافيَ بينهما من حيث هي ألفاظٌ»[22]. وهذا يُضيف آلية أخرى إلى تناصّ النّصين؛ وهي التّوسيع والشّرح ؛ إذ يمكن أن يفهم من نصّ سيبويه – بالنّظر والتّأمل– طبيعة العلاقة المعنوية بين المسند والمسند إليه ، غير أنه لا يصرّح بذلك[23].

–تجلو قراءة نصّ عبد القاهر تحويلاً في مفهومٍ قارّ في المدوّنة النّحوية عموماً يتمثّل في قسمة العناصر النّحوية إلى قسمين: عمدة ؛ وهي أصل لا يُستغنى عنه ، وفضلة يمكن الاستغناء عنها. وهذا المفهوم موجود في كتاب سيبويه في مواضع متفرقة ؛ فقد أكد شدّة ارتباط المسند والمسند إليه ؛ فهما كالكلمة الواحدة ، وغيرهما يمكن الاستغناء عنه ؛ كقوله عن الحال : « ما بعد الأسماء هنا لا يُفسِد تركه الكلامَ»[24]. والقول بالاستغناء ناتج من الاعتقاد القائم على تكّون المعنى من وحداتٍ متفاوتة الأهميّة يُضاف بعضها إلى بعض ؛ أهمّ هذه الوحدات وأوّلها تلك الناتجة من الإسناد ؛ إذ تشكّل نواة تتطاول مع الوحدات الأخرى التي تزيد الفائدة ؛ وهذا الفهم تحديداً نقضه نص عبد القاهر في دلائل الإعجاز؛ فقد جهد في الكشف عن الدّلالات الجديدة التي يتيحها تعلّق أي حرف أو كلمة بالسّياق المدروس ؛ فمحصول التّعليق معنى واحد ، لا مجموعة معانٍ يُضمّ بعضها إلى بعضٍ[25]؛ فالمفعول – مثلاً– ليس زيادة في الفائدة كما توهّم النّحاة ، بل إنّ الكلام يخرج بذكره إلى معنًى غير الذي كان[26]. « وهكذا يكون الأمر أبداً، كلما زدت شيئاً ، وجدت المعنى قد صار غير الذي كان»[27]. واللّافت أنّ نصّ عبد القاهر النّحويّ يوافق نصّ سيبويه في كلامه على الاستغناء[28] ، ولعلّ هذا يعود إلى تطوّر فكر عبد القاهر النّحويّ من جهة ، وإلى تأثير السّياق الجديد الموظّف في خدمة الإعجاز من جهة أخرى . إذن ، يبدو العامل المهمّ في هذا التّحويل هو السّياق البلاغيّ الذي تلتقي فيه العلوم ، ويلتفت إلى جماليّة النّص وأسراره. ومن هنا استطاع نصّ عبد القاهر التّفريق بين أصل المعنى النّاتج من الإسناد ، وصورة المعنى النّاتجة غالباً من هيئات النّظم ، وصوره التي تتضافر العناصر كلّها لتشكيله.

– يؤكد النّصان مركزيّة المتكلّم وأهميّة قصده في تحقّق المعنى وإقامة الإسناد ، إلا أنّ نصّ عبد القاهر يهتمّ اهتماماً بالغاً بهيئات النّظم ؛ فقد تنبّه على الأسلوب وخلقه إمكانات تصويريّة مختلفة ؛ فالتّعلق مبنيّ على قواعد واضحة معلومة ، إلا أن المتكلّم يختار الأنسب لغرضه ؛ ويعلّق الكلمات بعضها ببعض وفق ما يراه مناسباً وملائماً لأحكام النّحو. فيهتمّ النّصان بالسّياق التّداوليّ[29] ، إلا أنّ نصّ عبد القاهر يكشف عن اهتمامٍ بالغٍ بأسرار النّص وجماليّاته ، فيتنبه على التّرابط بين النّحو والبلاغة ، محيلاً على الأسلوب الذي يتخيّر من قواعد النّحو ما يناسب مقاصد

---

[22] ***نفسه ، الصفحة نفسها.***

[23] **ولعلّ ما قيل عن اختلاف تحديد ركني الإسناد في الجملة الاسمية في نصّه له صلة بذلك ؛ ينظر: *الكتاب* ، 23/1 ، و 78/2، 87، 126–127.**

[24] ***نفسه* ، 395/2. وذكر الاستغناء في غير موضع من *الكتاب* ؛ ينظر مثلاً : 1/ 74 .**

[25] **ينظر: *كتاب دلائل الإعجاز* ، 413.**

[26] **ينظر: نفسه ، 533.**

[27] **كتاب دلائل الإعجاز ، 534. وفي كلامه على الخبر وما يتحقق به الإسناد نجد ما قد يقترب من كلام النحاة على زيادة الفائدة ؛ فيذهب النص إلى أنّ أي كلام يوصف بالفرادة يعود أصله إلى معنى منفيّ أو مثبت (نتج من العلاقة الإسنادية) ثم يُخصّص هذا المعنى بكلماتٍ أخرى ؛ ينظر: نفسه ، 544.**

[28] **ينظر: الجرجانيّ ، عبد القاهر. *الجُمل* ، حققه وقدّم له: علي حيدر ، دمشق ، 1972م ، 15–16.**

[29] **من النصوص التي تهتمّ بهذا البعد في كتاب سيبويه (باب الاستقامة من الكلام والإحالة) ؛ ينظر: *الكتاب* ، 1/25–26.**

المتكلّمين. لذا يمكن للعلاقة الإسناديّة نفسها ، وأصل المعنى ذاته ، أن يتشكّلا بصور مختلفة إذا عُلّقت الكلمات بعضها ببعض بطرائق مختلفة.

وعليه ؛ يمكن إدراج التّناص السّابق تحت اسم (تحويل التّقابل)[30] ؛ فبعد امتصاص نصّ سيبويه تمّ تحويله في بنية النّص الجديد ، وذلك بتأكيد جزءٍ مهمّ منه ، ونقضِ جزءٍ ثانٍ ، والاتّساع في جزء ثالث. كما أنّ تدقيق النّظر في نصّ عبد القاهر يدلّ على تأثير تداخل السّياقات في بناء النّص المدروس. ومع أنّ حضور نصّ سيبويه جليّ لا يحتاج إلى كثيرٍ من التّفتيش لكشفه[31] ؛ ذلك أنّ نصّ عبد القاهر يصونه ، ويحفظ جوهره ، فالإسناد – كما تبيّن– أسُّ التّعليق ، إلا أنّ التّعليق يتجاوزه ، ويضيف إليه ؛ فإنّ نصّ عبد القاهر يُحدث تحويلاً لا يسلّم السّلطة للنّص الغائب بيسر، بل ينزعها منه عبر إضافته الثّرة ، واستثماره لوجوه البلاغة والبيان.

توخّي معاني النحو:

أعلن نصّ دلائل الإعجاز في غير موضعٍ أن « لا معنى للنّظم غير توخّي معاني النّحو فيما بين الكلم»[32] مستحضراً بتعبير " معاني النّحو" نصّ السّيرافيّ (ت 364هـ) في مناظرته مع أبي بِشر متّى بن يونس (ت 328هـ)[33]؛ لذا سيتّجه البحث إلى مواجهة نصّ الدلائل بنصّ السيرافيّ ، متوخّياً النّظر في آليات تفاعل النّصين، والكشف عن التّحول الذي أحدثه نصّ عبد القاهر نتيجة امتصاصه النصّ المذكور ، وتفاعله معه. وسنعمد – بعد القراءة والتّفكيك– إلى تسجيل ملاحظات أوليّة حول النّصين ، تتضمّن الفروق وأوجه التّماثل، ثم سنخلص إلى نتائج يتكشّف بها وجه التّناص في نصّ عبد القاهر. يمكننا – مبدئيّاً– ملاحظة ما يأتي:

---

[30] ندرس التّناص هنا تبعاً لآليتين ؛ هما: تحويل النّفي ، وتحويل التّقابل ؛ وهما آليتان حدّدهما لورون جيني بناءً على أنماط التّفاعل النّصي التي ذكرتها جوليا كريستيفا في دراسة أشعار لوتريامون : وهي: النّفي الكلّي ، والنّفي المتوازي ، والنّفي الجزئي. والمقصود بتحويل النّفي: امتصاص النّصوص بغرض نقضها . أمّا تحويل التّقابل ، فتأثيره غير ثابت ؛ إذ يتجاذب النّصان الحاضر والغائب السّلطة ؛ فتوضع النّصوص السّابقة في سياق جديد ، ويُعاد بناؤها ؛ قد يُنقض جزء منها ، ويؤكّد جزء ، أو قد تُقدّم بكيفيّة أخرى تناسب البنية النّصيّة الجديدة. ينظر: *علم النصّ* ، 78–79 ، وجيني ، لورون . *استراتيجيّة الشّكل (نظريّة التّناص في الثّقافة العالميّة)* ، ترجمة: نور الدّين محقق ، ط1 ، دال للنّشر والتّوزيع ، دمشق ، سورية ، 2015م ، 70. وقد نُشر أوّل مرّة في مجلّة (الشّعريّة) في فرنسا ، عام 1976م.

[31] تتكشّف في القراءة مركزيّة نصّ سيبويه في نصّ الدلائل ؛ فقد اقتبس منه اقتباساً مباشراً غير مرّة ؛ فبنى عليه ، وتجاوزه في الأغلب الأعمّ ، وخالفه في بعض الأحيان . ولعلّ وصف عبد القاهر لكتاب سيبويه في الرّسالة الشافية يكشف عن هذه المنزلة ؛ قال:« ومن أخصّ شيء بأن يُطلب ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأة في العلوم المستخرجة ، فإنّا نجد أربابها قد سبقوا في فصول منها إلى ضربٍ من اللفظ والنّظم ، أعيا من بَعْدَهم أن يطلبوا مثله ، أو يجيئوا بشبيهٍ له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويؤدُّوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي. وذلك ما كان مثل قول سيبويه في أوّل الكتاب:" وأمّا الفعل فأمثلةٌ أُخذت من لفظ أحداث الأسماء ، وبُنيتْ لما مضى وما يكون ولم يقع ، وما هو كائنٌ لم ينقطع". لا نعلم أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه ، ولا يقع في الوهم أيضاً أنّ ذلك يُستطاع» ؛ *كتاب دلائل الإعجاز (من الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز)* ، 604–605.

[32] *كتاب دلائل الإعجاز* ، 370. وينظر أيضاً : 84 ، 87 ، 405 ، 415 ، 452 ، 454 ، 525 ، 526 .

[33] ينظر نص المناظرة كاملاً في : التّوحيديّ ، أبو حيان. *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، صححه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين ، وأحمد الزّين ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع ، (د. ت) ، 1/ 107–128. و التّوحيديّ ، أبو حيان . *المقابسات* ، تحقيق وشرح: حسن السندوبي ، ط2، دار سعاد الصباح ، الكويت ، 1992م ، 68–86. ولا يغفل البحث – هنا– عن انتساب النص المذكور إلى التوحيدي الذي دوّنه بعد أن روى له السّيرافي لُمعاً من القصة ، بيدَ أنه أعاد النصّ إلى السّيرافي ؛ لأن غايته البحثُ في موضع أقوال السّيرافي في نصّ عبد القاهر ؛ خاصة أن السّيرافي لم ينتج نصّاً مكتوباً يُضمنّه أقواله في المناظرة.

– للنّصين بنية حجاجية تُعلي منزلة النّحو العربيّ ؛ ففي نصّ السّيرافيّ مواجهةٌ علنيّةٌ مع المنطق اليونانيّ ، على حين يحاجج نصّ عبد القاهر خصوماً افتراضيّين[34] ، يجهلون مكانة النّحو، وينتمون إلى تيّاراتٍ فكريّةٍ مختلفةٍ. ونتيجة لاختلاف طبيعة الخصم الحجاجيّ من جهة ، واختلاف الغاية من بناء النّصين من جهة أخرى[35] ؛ فقد بيّن نصّ السّيرافيّ – في محاولته سحب المزيّة من المنطق اليونانيّ الذي شبّهه متّى بالميزان [36]– قدرة النّحو العربيّ على تمييز صحيح الكلام من فاسده ، مشيراً إلى أنّ معرفة الوزن ليست إلا شيئاً يسيراً ؛ « فأراكَ بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها»[37]. أما نصّ عبد القاهر فيؤكد ما سبق ، ويتجاوزه ، جاعلاً مستوى الصّحة اللّغويّة درجة صفر لا تدخلها المزيّة، باحثاً عمّا يُكسب الكلام فضلاً يرتقي به في سُلّم البلاغة . وإذ أشار نصّه في غير موضع إلى تقصير النّحاة ، فقد ألحّ على كون النّحو مقياساً يكشف مستويات النّظم ، ويفاضل بين الكلم.

– يرد مصطلح (معاني النّحو) في نصّ عبد القاهر ورود الشّائع المألوف ، أما نصّ السّيرافيّ فيقدّمه بوصفه مصطلحاً مجهولاً ؛ ولذلك ذُكر المصطلح في النّصف الثّاني من نصّ السّيرافيّ ، على حين وجدناه يتصدّر نصّ الدّلائل ، ويتكرّر كثيراً فيه . ولا شكّ أنّ لعدم تبصّر متّى بن يونس بالنّحو صلة بذلك[38] ؛ فهو يقدّم مصطلحاً اختصاصيّاً لغير أهله.

– يربط النصّان بوضوح بين النّحو والعقل ؛ فصلة النّحو بالسطح أقلّ شأناً من صلته بالبنية العميقة للكلام ، والنّحويّ لا يُشغل بالألفاظ ، بل بالمعاني المتولّدة من العلاقات النّحويّة. وقد اختصر نصّ السّيرافيّ ذلك بالقول إنّ« النّحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ، ولكنه مفهوم باللّغة»[39]؛ إذ جهد في مناظرته في ربط المنطق باللّغة؛ ليثبت أن لا حاجة للعرب بمنطق يونان ؛ فلها منطقها الخاصّ ؛ ألا وهو النّحو العربي. بناءً على ذلك ، كان النّحو مفتاحاً لمعرفة فروق المعاني التي يهدف المتكلّم إلى الإفصاح عنها. ويُلحظ – هنا – استدلال النّصين على ذلك بالأمثلة المُفحمة ؛ كسؤال السّيرافيّ خصمه عن الفروق في المعنى بين عبارات مثل(بكم ثوبان مصبوغان؟) ،

---

[34] إنّ الصّدام المباشر مع شخص متّى أظهر كيديّةً وإقصاءً مباشراً لرأيه بوصفه ممثّلاً للنّظام المعرفيّ الفلسفيّ ؛ خاصةً أنّ المناظرة تجري في مجلس الوزير ابن الفرات المنحاز لموقف السّيرافي ، أمّا في نصّ عبد القاهر فقد خَفَتت عوامل الكيديّة الشّخصيّة ، وكانت الممارسة الخطابيّة أكثر التزاماً بضوابط الحجاج وآدابه.

[35] الغاية ردّ قول المنطقيين : إن المنطق هو السّبيل الوحيد لمعرفة الحق من الباطل في نص السّيرافي ، أما في نصّ عبد القاهر فهي الكشف عن وجوه المزيّة في الكلام ؛ لمعرفة مراتبه ، وصولاً إلى الرّتبة المعجزة التي تنقطع عندها الأطماع .

[36] ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ،109/1.

[37] نفسه ، 110/1.

[38] مع أنّ ذلك يبدو ذلك غريباً بعض الشيء على من " انتهت إليه رياسة المنطقيين في عصره " ؛ ينظر: النّديم ، محمد بن إسحق. *كتاب الفهرست (في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم)* ، تحقيق: رضا – تجدّد ، حقوق الطّباعة محفوظة للمحقق ، طهران ، 1971م ، 322).إلا أن نصّ التّوحيدي يصوره بهذه الصّورة ، ويجعله يتلقى الاتّهامات من السّيرافي دون الرّد عليها. ومع أنّنا ندرس النّص كما نُقِل إلينا ، فإننا نُبقي على هذا التّحفظ. وعموماً فإنّ تدقيق النّظر يكشف ما في نصّ التّوحيدي من تحامل ، وما فيه من مصادرة للرّأي ، وانحيازٍ للسّيرافي من الوزير ابن الفرات ، ومن التّوحيدي نفسه ؛ خاصّة أنّ مصادر المناظرة لدى التّوحيدي السّيرافي نفسه، والرّماني الذي كان من أنصار السّيرافي في المناظرة(ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ،108/1، 128). ويكفي – هنا– الإشارة إلى إحجام العلماء في مجلس الوزير عن المناظرة ، ومنهم السّيرافي نفسه ، وذلك – دون شكّ– لمهابة ابن متى رئيس المنطقيين آنذاك ، وخشية مناظرته .

[39] *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، 115/1.

و(بكم ثوبان مصبوغين؟) ، و (بكم الثّوبان المصبوغان؟)[40]. وهو الأسلوب عينه الذي اتّبعه نصّ عبد القاهر[41] مع التّوسع في ذلك ، مع الانتباه إلى أنّ نصّ السّيرافيّ يشغل صفحات عدّة ، على حين يمتدّ نصّ عبد القاهر على مئات الصّفحات.

– يدور نصّ السّيرافيّ على معاني النّحو وأحكامه ، وعلى ضرورة الإصابة في اختيار الوجوه التي يقتضيها علم النّحو، على حين يروم نصّ عبد القاهر مستوى أعلى ، وهو لطف الاختيار ، وتوخّي ما يوجب الفضيلة[42]. ومع أنّ نصّ السّيرافيّ يُلمح إلى أنّ مستوى الصّحّة غير كافٍ ، إلا أنه لا يرقى إلى تجاوزه ؛ فيكتفي بالرّمز والإيماء ، والإشارة في خفاء[43] ؛ إذ تتمحور غايته حول سحب المزيّة من المنطق اليونانيّ ، دون بيان إمكانات النّحو كلّها.

– يهتمّ النّصان بالأفكار نفسها تقريباً ؛ وذلك يوحي بقدرٍ من المطابقة[44]؛ أهمّ هذه الأفكار:

نصّ السّيرافيّ	نصّ عبد القاهر
تشبيه صناعة الكلام بنسج الثّوب الذي صار ثوباً بمراحل عدّة[45]	نظم الكلام نظير الصّياغة والنّسج والتّحبير والتّفويف والنّقش (اهتمام بالتّصوير خاصّة)[46]
صحيح الكلام من فاسده يعرف بالنّظم المألوف والإعراب المعروف[47]	لا يستقيم الكلام ولا تحصل منافعه إلا بمراعاة أحكام النّحو فيه ، من الإعراب والتّرتيب الخاصّ[48]. والإعراب يفتح الألفاظ المغلقة على معانيها ، ويستخرج الأغراض الكامنة فيها ؛ فهو المعيار الذي لا يتبيّن نقصان كلامٍ ورُجحانه حتى يُعرض عليه ، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيمٍ حتى يُرجع إليه [49].
النّحوي يبحث في المعاني لا في الألفاظ[50]	النّحو بحثٌ في المعاني لا في الألفاظ لا قيمة للّفظة المفردة خارج السّياق ؛ فالنّظم والتّرتيب قائم بين معاني الألفاظ ، لا بين الألفاظ نفسها[51].

[40] ينظر: كتاب الإمتاع والمؤانسة ، 122/1.

[41] ينظر مثلاً : *كتاب دلائل الإعجاز* ، 142 ، 143 ،

[42] ينظر: نفسه ، 85 .

[43] ينظر: *نفسه* ، 34.

[44] زعم د. حسن إسماعيل عبد الرّازق أنّ نظرية النّظم التي دار عليها كتاب دلائل الإعجاز ما هي إلا شرحٌ للمناظرة التي جرت بين أبي سعيدٍ السّيرافي ومتى بن يونس ؛ فأفكار الدلّائل هي أفكار المناظرة نفسها ، وبالتّرتيب نفسه . كما أنّ أسلوب الكتاب يتبع أسلوب المناظرة كذلك . وذهب إلى أنّ عبد القاهر تعمّد إخفاء ذكر السّيرافي في كتابه ؛ ينظر كتابه : *دلائل الإعجاز" بين أبي سعيد السّيرافي وعبد القاهر الجرجاني* ، دار الطّباعة المحمّدية ، القاهرة ، 1991م.

[45] ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، 121/1.

[46] ينظر: *كتاب دلائل الإعجاز* ، 50، 87–88 ، 370 . وهذا التشبيه متداول مشهور لدى الشّعراء والنّقاد على حدّ سواء.

[47] ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، 109/1.

[48] ينظر: *كتاب أسرار البلاغة* ، 71–72.

[49] ينظر: *كتاب دلائل الإعجاز* ، 28.

[50] ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، 114/1–115.

لا يوجد ربط واضح بين النّظم وتوخّي المعاني	النّظم توخّي معاني النّحو فيما بين الكلم
الاستدلال بأمثلة تطبيقيّة ، والاعتماد في كشف فروق بعضها على العقل وحده (زيد أفضل إخوته ، وزيد أفضل الإخوة)[52]	الاستدلال على تنظيره بالأمثلة ، والاعتماد في كشف الفروق – غالباً– على العقل ، والذّوق الفنّيّ الخالص

– مع هذا التّوافق ، فإنّ كلّاً من النّصين ينظر في اتجاه مختلف كما أشرنا آنفاً ؛ لاختلاف السّياق، والخصم الحجاجيّ، والغاية التي من أجلها بُني النّصان. ولذلك وجدنا عبد القاهر يجمع عبارتي السّيرافيّ: « صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنّظم المألوف والإعراب المعروف إذا كُنّا نتكلّم بالعربيّة ؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرف بالعقل إذا كُنّا نبحث بالعقل»[53] ، و« معاني النّحو منقسمة بين حركات اللّفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتّقديم والتّأخير، وتوخّي الصّواب في ذلك ، وتجنّب الخطأ من ذلك.»[54] ؛ ليخرج بقولٍ يقرن فيه معاني النّحو بالنّظم ، محافظاً على الألفاظ نفسها ، مغيّراً في تركيبها (قدّم التّوخّي) ؛ فخلق خلخلةً في قول السّيرافيّ ، وقلباً له. فبعد أن كانت معاني النّحو(أو النّظم) توخّياً للخطأ والصّواب ، غدا النّظم في نصّ عبد القاهر توخّياً لمعاني النّحو. وإلحاح الجرجانيّ على التّوخّي إلحاح على البلاغة ، وتوجّه النصّ إلى كشف أسرار التّفاوت ، وعلوّ كلامٍ آخرَ. وهنا نؤكّد أمرين: الأوّل أنّ دلالة النّظم في النّصين متقاربة ، وليست متطابقة ؛ فهي في نصّ السّيرافيّ عامّة لا تحمل سمات مغايرة لما جاء في نصوص غيره ؛ ولذلك فصل بين الإعراب والنّظم . وهي في نصّ الدّلائل مضبوطة بـ" توخّي معاني النّحو فيما بين الكلم". والأمر الآخر أنّ إعادة تنظيم نصّ الدّلائل لنصّ السّيرافيّ ليست ضرباً من التّجريب ، أو التّركيب الاعتباطيّ ، بل نتاج نضج فكرة النّظم في النّص ؛ وهو ما تجلّى في وضوح التّعبير، ودقّة ضبط الأدوات.

إذن ، لا يَني النصّان الحجاجيّان يدوران في فلك الخلاف الدّائر حول اللّفظ والمعنى؛ ليبيّنا أنّ النّحويّ يبحث في المعنى لا في اللّفظ ، وأنّ المعاني تتولّد من علاقات الكلم بعضها ببعض. وأوضحا بالأمثلة أنّ أيّ تغيير في هذه العلاقات يُحدث تغييراً في المعنى. ومع أنّ نصّ السّيرافيّ يُلمح إلى أنّ صحّة الكلام أقلّ شيء يقوم به النّحو ، فإن البحث في تحقيق معاني النّحو يحتلّ موقع الصّدارة في نصّه ، على حين استأثر البحث عن موضع المزيّة باهتمام نصّ عبد القاهر. وهذا الكلام يوجّهنا إلى ملاحظةٍ أخرى – بعد الإقرار بمركزيّة النّحو في النّصين – وهي ادّعاء نصّ السّيرافيّ أن لا حاجة بالنّحو العربيّ إلى علوم أخرى تعضده ؛ فهو منطق العرب . أما نصّ عبد القاهر المنبثق من مرجعيّات معرفيّة مختلفة ، فقد مكّن النّحو عبر شبكه بغيره ؛ فوسّع أفقه ، وسبر أغواراً لم يتطلّع نصّ السّيرافيّ إلى كشفها. وبسبب إلحاح نصّ السّيرافيّ على استغناء النّحو بنفسه ، فقد تكلّم على الفروق في تركيب الكلم ، وغفلَ عن مراعاة المقام ، وبيان أثر السّياق في كشف الدّلالة ، وبيان المقاصد ، وتحقّق البلاغة.

أمّا ما رأيناه من التقاء أفكار النّصين فيعود – في جزء كبير منه – إلى أصول النّحو التي بها يكون النّظم دَفعةً[55]، ممّا لا يمكننا معه الإحالة على نصّ بعينه ؛ إذ يتّفق النّحويَّان العَلمان : السّيرافيّ – شارح كتاب سيبويه – وعبد القاهر

---

[51] ***كتاب دلائل الاعجاز*** ، **28** .

[52] **ينظر: *كتاب الإمتاع والمؤانسة* ، 1/ 120.**

[53] ***نفسه*** ، **109/1.**

[54] **نفسه ، 121/1.**

[55] **ينظر: *كتاب دلائل الإعجاز* ، 3.**

الجرجانيّ الذي وُصف بأنه من أكابر النّحويين[56] على هذه الأصول. أمّا إذا توقفنا عند المستويين اللّفظيّ (المعجمي) ، والتّركيبي لكلا النّصين فقد نجد شيئاً مختلفاً ؛ ففي المستوى المعجميّ يتبدّى لنا التّقاطع الحاصل في ألفاظٍ منتقاةٍ ؛ مثل (معاني النحو ، التوخّي ، التّرتيب والنّظم ، معاني النّحو ووجوهه وأحكامه). ممّا يعقد صلةً بين النّصين ؛ خاصة مصطلح (معاني النّحو) الذي ظهر أول ظهور في نصّ السّيرافيّ بحسب ما وقع بين أيدينا من نصوص. وعلى المستوى التّركيبيّ أشرنا إلى إمكانيّة أنّ يكون نصّ الدّلائل الذي أكّد أن « لا معنى للنّظم غيرُ توخّي معاني النّحو فيما بين الكلم»[57] جمعاً لتراكيب نصّ السّيرافيّ في المناظرة ، وإعادة توزيع لها بما يناسب مقاصده. إضافة إلى الكلام المتكرّر على أحكام النّحو والوجوه والفروق في النّصين.

يمكن القول – بناءً على ما تقدّم – إنّ نصّ عبد القاهر تفاعل مع نصّ السّيرافيّ ، مستثمراً مصطلحاته (معاني النّحو خاصّة) ، معيداً توزيع عناصره ؛ ليدخله في بنيته النّصيّة الخاصّة ، معلياً منزلة الاختيار، ملحّاً – بالاختيار– على البلاغة بوصفها مكمن الإعجاز. ويبدو أنّ إعادة توزيع العناصر التي صاغ بوساطتها نصّ عبد القاهر مفهوم النّظم هي مركز التّحويل الأساسيّ التي وطّد بها النصّ صلة النحو بالبلاغة ، وانتقل بها من مستوى الصّحّة اللّغوية إلى مستويات البلاغة ومراقيها ، مبيّناً تعدّد مستويات الكلام ؛ فقد انتهى إلى أنّ النّظم ليس معاني النّحو فحسب ، بل هو توخّيها . وليس اختياراً للصّواب الذي يقتضيه علم النّحو فقط ، بل انتقاء للمستقيم الحسن بتعبير نصّ سيبويه[58] ؛ فللتّوخّي صلةٌ بالبلاغة ، ومناسبة المقاصد ؛ إذ « لا فضيلةَ حتى ترى في الأمر مصنعاً ، وحتى تجدَ إلى التّخيُّرِ سبيلاً ، وحتى تكون قد استدركتَ صواباً»[59].

وعليه ؛ يمكن أن يندرج هذا التّناص كذلك تحت عنوان (تحويل التّقابل) ؛ فقد حدث التّحويل في جزء من النّص عبر الشّرح والتّغيير، مع الإبقاء على قاعدة واسعة مشتركة تنتمي إلى الأصول التي يتّفق عليها المشتغلون بصناعة النّحو. وليس بمستغربٍ أن يكون مصطلح (معاني النّحو) – كذلك– تعبيراً شائعاً بين أهل الصّناعة، وليس من ابتكار السّيرافيّ الذي دوّنه في نصّه.

ومن المهمّ الإشارة– ختاماً– إلى أنّ عمليّة التّحويل هذه القائمة على استقطاب نصّ السّيرافيّ إلى دائرة الأصول النّحويّة ، خُلقت بعملية حوار نديّ بين النّصين ؛ فعبد القاهر علم من أعلام الصّناعة ؛ لذا تمكّن من تطويع نصّ السّيرافيّ ، وترميم فجواته عبر دمجه بعلم البلاغة ؛ ليتطلّع نصّه بهذين العِلمين معاً إلى الكشف عن أسرار بلاغة النّص القرآنيّ ، وإعجازه .

---

[56] ينظر: ابن الأنباري ، أبو البركات. *نُزهة الألبّاء في طبقات الأدباء* ، تحقيق: د. إبراهيم السّامرّائي ، ط3 ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن ، 1985م ، 264.

[57] *كتاب دلائل الإعجاز* ، 370.

[58] ينظر: *الكتاب* ، 25/1.

[59] *كتاب دلائل الإعجاز* ، 98.

الاستنتاجات والتوصيات

وهكذا ، فقد ألقى البحث بعضَ الضّوء على الاستراتيجيّات التي نحاها نّص الدلائل في تفاعله مع نصّين استحضرهما في تعريفه النّظمَ بالتّعليق وتوخّي معاني النّحو ؛ هما: نصّ سيبويه ، ونصّ السّيرافي ؛ فأظهر امتصاصه النّصين، وتحويله لهما في نصّه ؛ لإنتاج نصّ جديدٍ يتجاوزهما معاً. وقد تبيّن للبحث أنّ العامل الأساس في هذا التّحويل هو تداخل السّياقات ، وشبك الحقول المعرفيّة ؛ فقد كان لتداخل هذه السّياقات أثرٌ واضحٌ في غنى النّص معرفيّاً. كما تبدّى في النّص الحضور الجليّ للنصّ النّحويّ ؛ وهذا أمرٌ طبيعيّ في النّموذجين المتخيّرين للدّراسة التّناصيّة. غير أنّ هذا لا يعني أنّ نصّ عبد القاهر محكومٌ بالنّص النّحويّ وحده بوصفه مكوّناً له ؛ فقد أقرّت القراءة في مفهوم النّظم ذاته – المؤسّس على النّص النّحويّ – عدم اقتصار نصّ عبد القاهر على النّحو بمفهومه التّقليديّ ؛ فلا يشرحه ، أو يكرّره ، بل يشبكه بالنّصّ البلاغيّ ، متطلّعاً إلى لُطف التّخيّر ، وحُسن التّوخي ، متجاوزاً مستوى الصّحّة اللّغويّة إلى دقائق النّظم وأسراره.

بناءً على ما سبق ، يخلص البحث إلى تأكيد فاعليّة التّناص في معالجة النّص النّقديّ بوصف التّناص آلية قراءةٍ ، تتيح وعياً جديداً بالنّص ، وتُحدث معرفةً به ، انطلاقاً من النّص نفسه . وينتهي إلى ضرورة إقرار هذا المدخل في قراءة النّصوص النّقديّة التي تكشف عن موقع النّص من منظومة النّصوص النّقديّة المعاصرة له ، وتظهر تشابكه مع غيره عبر علاقات التّماثل والاختلاف ؛ لإبراز التّفرّد – إن وجد – في مستويين ؛ هما: آلية البناء ، والمنتج النّصيّ نفسه.

المصادر والمراجع:

1. ابن الأنباري ، أبو البركات . نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء ، تحقيق: د. إبراهيم السّامرّائي ، ط3 ، مكتبة المنار ، الزّرقاء ، الأردن ، 1985م.

2. التّهانوي ، محمّد علي . موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق: د. علي دحروج ، تقديم ومراجعة : د.رفيق العجم ، نقل النّص الفارسي إلى العربيّة: د. عبد الله الخالدي ، التّرجمة الأجنبيّة: د.جورج زيناتي ، ط1، مكتبة لبنان ناشرون ، 1996م.

3. التّوحيديّ ، أبو حيّان :

– الإمتاع والمؤانسة ، صحّحه وضبطه وشرح غريبه: أحمد أمين ، وأحمد الزّين ، دار مكتبة الحياة للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، (د. ت).

– المقابسات ، تحقيق وشرح: حسن السّندوبي ، ط2، دار سعاد الصباح ، الكويت ، 1992م.

4. تودوروف ، تزفيتان . نقد النّقد (رواية تعلّم) ، ترجمة: د. سامي سويدان ، ومراجعة: د. ليليان سويدان ، ط2 ، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة – وزارة الثّقافة والإعلام ، العراق ، بغداد ، 1986م.

5. الجرجاني ، الشّريف. معجم التّعريفات ، تحقيق ودراسة: محمّد صدّيق المنشاوي ، ط1 ، دار الفضيلة ، القاهرة، 2004م.

6. الجرجاني ، عبد القاهر:

– الجُمل ، حققه وقدّم له: علي حيدر ، دمشق ، 1972م.

– كتاب أسرار البلاغة ، قرأه وعلّق عليه : محمود محمد شاكر ، ط1 ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة، 1991م.

– كتاب دلائل الإعجاز ، تحقيق: محمود محمّد شاكر ، ط3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1992م.

– كتاب المقتصد في شرح الإيضاح ، تحقيق: د. كاظم بحر المرجان ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرّشيد للنشر ، الجمهوريّة العراقيّة ، 1982م.

7. جيني ، لورون . استراتيجيّة الشّكل (نظريّة التّناص في الثّقافة العالميّة) ، ترجمة: نور الدّين محقق ، ط1 ، دال للنّشر والتّوزيع ، دمشق ، سورية ، 2015م.

8. الرّازق ، حسن إسماعيل عبد . "دلائل الإعجاز" بين أبي سعيد السّيرافي وعبد القاهر الجرجاني ، دار الطّباعة المحمّدية ، القاهرة ، 1991م.

9. سيبويه ، الكتاب ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون ، ط3 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1988م.

10. ابن فارس ، معجم مقاييس اللّغة ، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون ، ط1، دار الفكر ،1979م.

11. كريسطيفا ، جوليا. علم النّص ، ترجمة: فريد الزّاهي ، ومراجعة: عبد الجليل ناظم ، ط2 ، دار توبقال للنشّر، الدّار البيضاء ، المغرب ، 1997م.

12. ابن منظور ، لسان العرب ، تحقيق: عبد اللّه الكبير ، ومحمّد حسب اللّه ، وهاشم محمّد الشّاذلي ، دار المعارف، (د.ت) .

13. النّديم ، محمّد بن إسحق . كتاب الفهرست (في أخبار العلماء المصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم) ، تحقيق: رضا – تجدّد ، حقوق الطّباعة محفوظة للمحقق ، طهران ، 1971م.

الدّوريّات:

1. بقشي ، عبد القادر. التّناصّ النّقديّ ، علامات ، المجلّد 15 ، العدد 58 ، 2005م.

2. موزاي ، ليلى بيرون . التّناص النّقديّ ، ترجمة: سعيد بن الهاني ، نوافذ ، العدد 34 ، السّعوديّة ، 2005م.

References

1-Iben al-anbari Abo albarakat. *Nizht alaba fee tabakat al-odab'a*. investigated by:dr.Ibraheem al-samraee,p3,Al-manar liberary,Al-zarqa'a ,Jourdan ,1985.

2- Altahnawi, Mohmmed Ali.*Arts Discovery terms encyclopedia*. investigated by:dr.Ali Dhroj,presented and revised by:dr.Rafik Alajam.Rendered from Persian into Arabic by:dr.abdlah al-khaldi,the foreign translation by:dr.Goerge Zinati ,first ed,Lebanon Nashroon publishing,1996.

3-Al-tawhidi ,Abouhaian:

-*Al-emtaa wal mo'ansa*. Ahmed Ameen and Ahmad Alzain ,life library publishing .

-*Al-moqabasat*, investigated and expressed by:Hssan al-sandoi,S'oad alsobah publishing , Kwait,1992.

4-Todrove,Tzevitan.*The criticism of the criticism* .Translated by:Dr.Sami Swidan, Reviewed by:dr.Lilian Swidan,p2,Baghdad, Iraq,1986.

5-Al-jirjani,Al-shaif.*Al-ta'arifat "The definitions" Dictionary*. investigated and studied by:Mohmmed sadeek almanshawi,p1,Al-fadila puplishing,Cairo,2004.

6-Al-jurjani,Abdalkaher:

-*The sentences"Al-jomal"*,investigated and presented by: Ali Haidar, Damascus,1972.

-*The Rhetoric Secret* , investigated by:Mahmood Mohmmed Shaker,first ed,Al-madani publishing in Cairo,Al-madani in Jada ,1991.
-*The miracle signs"Dla'ael Al-ejaz*. investigated by: Mahmood Mohmmed Shaker**,**3d. ed,Al-khanjee library,Cairo,1992.
-*Al-Moqtaed Fee sharh Al-edah*. investigated by:Dr.Kazem Bahr al-morjan ,the ministry of culture and media publishing,Al-rasheed publishing,Iraq,1982.
7-Jenn Loron,*The strategy of the shape(Inter-textuality theory in the global culture)*,translated by:Nour Al-deen Mohakek,first ed,Dal for puplishing,Damascus,Syria,2015.
8-Al-razak,Hsan Ismail Abd.*Dala'el Al-ejaz between Abis'aid al-sirafi and Abdal-kaher al jorjani*,Al-Mohmadiah,Cairo,1991.
9-Sybawih.*Al-ketab*,investigated and expressed by:Abed al-salam Haroon,ed 3,Al-khanji,Cairo,1988.
10-Ibeb Fares .*The language Scale Dictionary"Mooajam Makaees Alogha*,,investigated by: Abed al-salam Haroon,Alfker Puplishing,1979.
11-Kristiva,Julia.*The Science of the text* .Translated by : Fareed Zahi,Revised by:Abd-aljalil Nazem,Tobkal Publishing,Marroco,1997.
12-Iben Manzor.*The Arab Tung*. Investigated by:Aballah al kebeer, Mohmmed Hasballah, Hashem Mohmmed shazli, ahm'erf Puplishing.
13-Al-Naeem,mohmmed Ibn Ishak,*Al-fhrest,Riad,Jaddad,All copy rights are saved for the investigator*,Tahran,1979.

Journals:

1-Bakshi,Abdalkader.*The critical Intertextuality*, Alamat,Vol 15,No 58,2005.
2-Moazi,Leila Biron, *The critical Intertextuality* ,Translated by:Said Ben Al-ali,Nazwa,No.34,Saudi Arabia,2005.